دار المنظومة
DAR ALMANDUMAH
الرواد في قواعد المعلومات العربية

العنوان:	النسيج العمراني للمدينة العربية الإسلامية من خلال رحلة ابن جبير : (578 ه/ 1182 م - 581 ه/ 1185 م)
المصدر:	دراسات - العلوم الإنسانية والاجتماعية
الناشر:	الجامعة الأردنية - عمادة البحث العلمي
المؤلف الرئيسي:	غرايبة، خليف مصطفى حسن
المجلد/العدد:	مج43, ع2
محكمة:	نعم
التاريخ الميلادي:	2016
الصفحات:	877 - 892
رقم MD:	749141
نوع المحتوى:	بحوث ومقالات
اللغة:	Arabic
قواعد المعلومات:	EduSearch, HumanIndex
مواضيع:	النسيج العمراني ، المدن الإسلامية، العمارة الإسلامية
رابط:	http://search.mandumah.com/Record/749141

© 2021 دار المنظومة. جميع الحقوق محفوظة.
هذه المادة متاحة بناء على الإتفاق الموقع مع أصحاب حقوق النشر، علما أن جميع حقوق النشر محفوظة. يمكنك تحميل أو طباعة هذه المادة للاستخدام الشخصي فقط، ويمنع النسخ أو التحويل أو النشر عبر أي وسيلة (مثل مواقع الانترنت أو البريد الالكتروني) دون تصريح خطي من أصحاب حقوق النشر أو دار المنظومة.

النسيج العمراني للمدينة العربية الإسلامية من خلال رحلة ابن جبير (578هـ/1182م-581هـ/1185م)

*خليف مصطفى غرايبة**

ملخص

ابن جبير الرحالة العربي المسلم انطلق في رحلته للحج إلى مكة من غرناطة بالأندلس، واستغرقت رحلته سنتين وثلاثة أشهر، تنقّل خلالها بين العديد من المدن العربية الإسلامية ودوّن مشاهداته عنها في كتابه: "رسالة اعتبار الناسك في ذكر الآثار الكريمة والمناسك"، المعروفة برحلة ابن جبير.

تمّ حصر عدد المدن بـ37 مدينة، منها 12 في مصر، ومدينتان في شبه الجزيرة العربية، و5 مدن في العراق، و8 مدن في الجزيرة الفراتيّة، و10مدن في بلاد الشام.

تهدف هذه الدراسة إلى حصر مكونات النّسيج العمراني لهذه المدن كما وصفها ابن جبير، والتي توزّعت على أربعة أنواع هي: المباني السكنية، والمباني الدينية، والمباني الدفاعية، والمباني الخدمية (كالخانات، والمتنزهات، والبيمارستانات، والحمّامات وغيرها).

ولتحقيق الهدف السابق اتبعت الدراسة المنهج التاريخي التحليلي لتتبع خط سير الرحلة بين هذه المدن، وتوصلت إلى نتائج وتوصيات أشارت إلى شمولية الفكر الإسلامي العربي في التخطيط العمراني.

الكلمات الدالة: النسيج العمراني، ابن جُبير، المدينة العربية الإسلاميّة، المكونات العمرانيّة.

الإطار النظري والمنهجي للدراسة

مقدمــة: كان للرّحالة العرب والمسلمين الفضل في اتّساع معرفة الجغرافيين بأرجاء العالم المعروف، لأسباب عديدة من أبرزها: انتشار الإسلام واتّساع أراضي الخلافة الإسلامية التي امتدت من حدود الصين شرقاً حتى سواحل المحيط الأطلسي والأندلس غرباً ومن البلقان شمالاً حتى أواسط إفريقيا جنوباً علاوةً على الجزر المُنتشرة في البحر المتوسط والمحيط الهندي (الشامي،1981)، وبعد انتشار الإسلام خارج الجزيرة العربية ظهرت مراكز إسلامية جديدة مثل: القاهرة وبغداد، وحلب ودمشق، وقد صاحب توسّع حدود الدولة الإسلامية ظهور مراكز أخرى في بلاد المغرب العربي والأندلس، وبلاد فارس، وفي بلاد ما وراء النهرين سيحون وجيحون (Syrdaria and Amodaria). (لومبارد،1998).

ومع تشجيع الإسلام للعلم وبناء المدن، انتشرت المراكز العمرانية ذات الطابع الإسلامي في هذه المدن وتعدّدت أشكالها ووظائفها، وأصبحت مع مرور الزمن مراكز إشعاع حضاري، وقد تحدّث ابن جبير في رحلته المشهورة للحج في الفترة (578هـ/1182-581هـ/1185) بإسهاب عن هذه المدن، وكانت المُلاحظة الشّخصيّة أهم مصدر من مصادر المعرفة الجغرافية لديه فأصدر كتابه" رسالة اعتبار الناسك في ذكر الآثار الكريمة والمناسك" وأصبح مرجعاً أساسيّاً للتعرّف على أسماء المدن العربية والإسلاميّة وتركيبها الداخلي، وإبراز هويّتها المعماريّة التي امتازت بها.

منطقة الدراسة: تتمثّل منطقة الدراسة بالمُنشآت المعمارية في المدن العربية والإسلاميّة التي مرّ بها ابن جبير أثناء رحلته الأولى للحج، ومع أنّ هذه الرحلة ذات مسارٍ بحريّ بريّ، إلاّ أنّ هذه الدراسة ستقتصر على الجزء البري منها في الأقاليم الجغرافية الخمس التي مرّ بها ابن جبير (مصر، والحجاز، والعراق، والجزيرة الفراتيّة والشام)، ابتداءً بمدينة الإسكندرية بمصر مروراً بالعديد من مدن هذه الأقاليم، وانتهاءً بمدينة عكا بالشام، وما شاهده من مراكز عمرانيّة أساسيّة (مُنشآت) توجد في كل مدينة منها، حيث استطاع الباحث حصر عددها بـ37 مدينة (شكل رقم 1).

* كلية عجلون الجامعية، جامعة البلقاء التطبيقية، الأردن. تاريخ استلام البحث 2014/9/7، وتاريخ قبوله 2014/11/27.

© 2016 عمادة البحث العلمي/ الجامعة الأردنية. جميع الحقوق محفوظة.

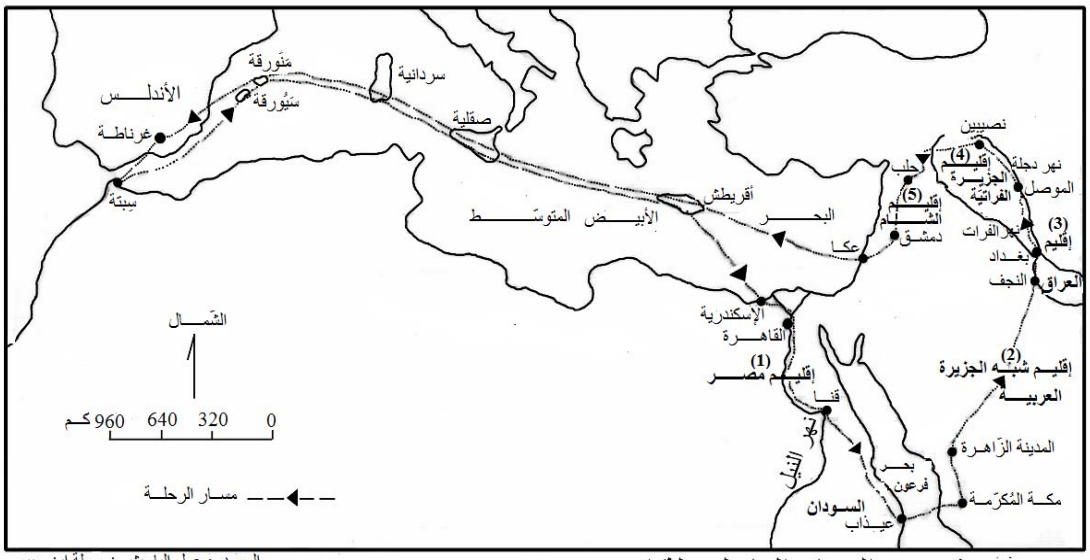

المصدر: عمل الباحث من رحلة إبن جبير

شكل رقم (1): المسار العام لرحلة ابن جبير 578-581 هـ

موضوع الدراسة وأهميته: شكّلت الرّحلات بين الغرب الإسلامي والمشرق بشكل عام مصدراً هاماً للمعلومات، وخاصّة المستقرات بكافة مستوياتها، وما يشتمله التركيب الداخلي لهذه المدن من استعمالات أرض وفي مُقدّمتها الاستعمال السكني، والمنشآت العمرانيّة الخدميّة المُتعدّدة (الهيتي وآخرون، 1985).

كانت رحلة ابن جبير (محور هذه الدراسة) من أهم الرحلات التي أشارت بالتفصيل الموضوعي إلى مظاهر الحضارة العربية الإسلامية المعماريّة في العديد من المدن التي زارها في الأقاليم الجغرافية المذكورة سابقاً، وبما يُوحي إلى قوّة الصلات العلمية بين الغرب الإسلامي (الأندلس) وبلاد المشرق وخاصّة الشام، ونظراً لما تتمتّع به رحلته هذه من مكانة عالية بين الرّحلات المغربيّة فقد توجّه إليها الاهتمام في هذه الدراسة ولا سيّما أنّ هذه الرحلة تُعدُّ رواية شاهد عيان للأحداث التي جاءت فيها (طه،2005).

وتتمثّل أهميّة هذه الدراسة في أنّ رحلة ابن جُبيْر تُعدّ من المصادر الأساسيّة لتاريخ أي مدينة أو إقليم مَرَّ به هذا الرّحالة، لأنّه كان دقيق المُلاحظة صائب النّظر، يهتمُّ بتسجيل كلّ ما يراه بأسلوب سهْل صادق يبعث على الثّقة، وقد كان لمُلاحظاته ومُشاهداته أهميّة كبيرة في إبراز الهويّة العمرانية للمدينة العربية الإسلاميّة(غرايبة، 2009).

أهداف الدراسة: اجتاز ابن جبير في رحلته هذه أكثر من أربعة آلاف كيلومتر، مرّ خلالها بمائةٍ وستةٍ وثلاثين مُستقرّاً، منها سبع وثلاثين مدينةٍ، وسبع بلداتٍ، وإحدى وأربعين قريةٍ، وإحدى وخمسين محطّةٍ أو استراحةٍ (غرايبة،2009)، وجاء هذا البحث لحصر المكوّنات العمرانيّة الأساسيّة التي امتازت بها المدينة العربية الإسلاميّة وشكّلت نسيجاً عمرانيّاً إسلاميّاً تميّزت به عن غيرها من المدن آنذاك، وإبراز الدور الوظيفي لكلّ مكوّن عمراني منها، كما يهدف إلى رَسْم خريطة عامّة لمَسار الرّحلة، وخرائط أخرى لمواقع المدن في الأقاليم التي مرّ بها.

مجالات الدراسة: التزم البحث في تحقيقه لأهدافه ومحتواه بمجالات ثلاثة هي:

المجال المكاني (الجغرافي): الذي يتمثل بالمسار العام للرحلة (شكل رقم1).

المجال السكّاني (البشري): ويتمثل بالمدن التي مرّ بها ابن جبير وعددها 37 مدينة.

المجال الزّماني (التاريخي): ويتمثّل بالفترة الزمنية التي قضاها إبن جُبير في رحلته.

منهجية الدراسة: ولتحقيق الأهداف السّابقة تمّ إتّباع المنهجين التاريخي Historical والتّحليلي Analytical، فقد اعتُمِدَ المنهج التاريخي في تتبّع مسار رحلة ابن جبير التي ابتدأت بمدينة الإسكندرية في 29ذو القعدة 578هـ/25 آذار 1183م، وانتهت بمدينة عكا في 22 جمادى الأخرى 581هـ/19 أيلول 1185م، بفترةٍ زمنيّةٍ استغرقت سنة ونصف، ورسم الخرائط التّوضيّحيّة لمسار الرحلة، أمّا المنهج التحليلي فقد اعتُمِد في حصر المكوّنات العمرانيّة الأساسيّة في كل مدينة مرّ بها ابن جبير، ومعرفة أنواعها ووظائف كلٍّ منها، وبناء الجداول المناسبة.

وقد تمّ استخدام جهاز البلانيميتر "Planimeter" لقياس المسافات بين المدن التي مرّ بها ابن جبير، وذلك عن الخرائط الموجودة في كلٍّ من أطلس العالم (نصروآخرون،1،1999: 12-13، 17، 37-39)، و Atlas Advanced (Collins,1968: 92-93,110,157)

ونظراً لخصوصيّة وتعدّد المكوّنات العمرانيّة المُميّزة للنّسيج الحضري للمدن العربيّة الإسلامية التي زارها ابن جبير، فإنّه سيتم التّطرّق إلى المكوّنات الأساسيّة ذات العلاقة مع هدف البحث وليس جميعها.

الدراسات السابقة: تناولت دراسات عديدة رحلة ابن جُبير، ويمكن تصنيفها على النّحو التالي:

دراسات تتعلّق بتحقيق الرحلة، مثل دراسات: (نصار، 1955) و(أماري،1994) و(شمس الدين، 2003).

دراسات عامة عن الرحلة، مثل دراسات:(زيادة، 1939) و(خليفه،1998).

دراسات تتعلّق بأجزاء (مواضيع) من الرّحلة، مثل دراسات: (كيلاني، 1950)، عن ابن جبير في مصر والحجاز، ودراسة (العاملي، 1999) عن النشاط التجاري في رحلة ابن جبير، ودراسة (بهيني، 1999) عن أوضاع المسلمين في عهد ابن جبير، ودراسة (هاشم، 2002) عن بغداد في رحلة إبن جُبير، ودراسة (الرحموني، 2005) عن العجيب الغريب في رحلة إبن جُبير، ودراسة (طه، 2005) عن التأثير المتبادل بين الغرب الإسلامي والمشرق، ودراسة (غرايبة، 2009) عن المستقرات العربية الإسلامية في رحلة ابن جبير.

دراسات في أسلوب رحلة ابن جبير وفهرستها، مثل: (عوض،1992) وهي دراسة في الأسلوب، ودراسة(عزب، 2000) الذي قام بعملية ضَبْط ووضْع فهارس للرحلة.

الدراسات العديدة التي قام بها شفيق الرقب واستنبطها من كتاب رحلة ابن جبير، وقد تناولت هذه الدراسات جوانب مُتعددّة من الحياة الاجتماعيّة والاقتصاديّة والعمرانية، حيث أشار إلى الفئات الدينيّة التي ضمّها المجتمع المحلي، أهل الذمة واليهود والنصارى، وموقف المسلمين منهم، والعلاقات الحسنة بينهم، كما استنبط الرقب (من رحلة ابن جبير) العلاقات الاجتماعية التي كانت سائدة بين المسلمين والفرنجة، وأسهب في وصفها، من حيث طبيعتها وأنماطها، وأشار إلى ظاهرة التصوّف التي حظيت- كما يذكر ابن جبير- باهتمام الحكام ورعايتهم، واشار الرقب إلى الوصف الدقيق التفصيلي لابن جبير لكل مدينة كان يزورها من حيث مساجدها، ومدارسها، ورُبُطها، وأسواقها، ومزاراتها ومزاياها الطبيعية والتاريخية.

(الرقب،2009)، كما أشار الرقب نقلاً عن ابن جبير الصورة العامة لحياة الفرنجة في بلاد الشام والتي اتّسمت بالصبغة العسكرية، واعتنائهم- رغم ذلك- في عمارة البلاد التي استوطنوها، ومارسوا حياتهم بحريّة ويُدلل الرقب على ذلك من مثال ذكره ابن جبير عن عُرس شاهده في صور ووصفه للباس العروس بأنّه"أبهى زي وأفخر لباس".(الرقب،1996).

دراسة (بني سلامة، 2011) وهي رسالة ماجستير في اللغة العربية، وفيها إشارات عديدة عن رحلة ابن جبير وعن الأوضاع العامة للمدن في ديار الشام في القرن السادس الهجري، وتحدثت عن وصف ابن جبير لمظاهر العمران الاجتماعي في بلاد الشام كالأسوار، والقلاع، وما توفّره من قوة ومنعة، كما أشارت إلى وصف ابن جبير للبساتين والمزروعات وخصوبة الأراضي، وكيفية استغلالها من المسلمين والفرنجة، وأشارت إلى العلاقات الاجتماعية واتفاقات الهُدنة بينهما(بني سلامة،2011).

وقد جاءت هذه الدراسة لتُركّز على جانب هام من جوانب الرّحلة وهو: "النسيج العمراني للمدينة العربية الإسلامية"، مع التركيز بشكلٍ خاصٍّ على المكوّنات العمرانية الأساسيّة للمدن التي مرّ منها ابن جبير.

مصادر بيانات الدراسة وطرق عرضها: اعتمدت الدراسة بشكل أساسي في مصدر بياناتها على رحلة إبن جُبيْر الموسومة: رسالة اعتبار الناسك في ذكر الآثار الكريمة والمناسك، الطبعة الثانية، الصادرة عن مكتبة الهلال في بيروت لعام 1986م، علاوة على اعتماده على العديد من المصادر والمراجع الأخرى التي تُعضّد وتُبْرز أهدافها، وتمّ تحليل هذه البيانات بأساليب مُتعدّدة وترتيبها بشكلٍ يُساعد على فَهْم الدراسة وانتظامها وتتابعها، وأهم هذه الطرق:

العَرْض الجَدْوَلي: احتوى الدراسة على سبعة جداول تَمّ تشكيلها من مسار الرحلة بمراحلها المتعددة.

التمثيل الكارتوغرافي والبياني: اشتملت الدراسة على ثمانية أشكالٍ، ستّ منها كارتوغرافية، الأولى تُشير إلى مسار الرحلة العام، والخمس الأخرى إلى مواقع المدن في الأقاليم الجغرافية التي اجتازها ابن جبير، علاوة على شكليْن بيانييْن.

مفاهيم البحث الأساسيّة ومصطلحاته:

النسيج الحضري (Urban Fabric): عدد من الكُتل العمرانية التي تُمارس فيها فعاليات مُتعدّدة، من قِبَل مجاميع بشريّة مُحدّدة، تقوم بفعالياتها ضمن حيّز مكان مُحدّد، نُظمت فيها استعمالات الأرض المُختلفة (علوان،2012)، وهو تفاعل عدد من المنظومات الاقتصادية والعمرانية والاجتماعية مع بعضها، لتكوين بنية مترابطة لها خصوصياتها، وبذلك يكون

النسيج الحضري نظاما معقدا تحكمه مجموعة من العلاقات المتبادلة والمتداخلة(الخطيب، د.ت).

الإحياء (Revitalization): العملية التي يتم بواسطتها إعادة الحياة للمنطقة بالحفاظ على مبانيها وإعادة استعمالها من جديد(Earl,2001).

المحافظة (Preservation): المحافظة على المكان أو النسيج بوضعه الحالي كما هو، والمحافظة عليه من أن يتهدم أو أن تسوء حالته في المستقبل، إلى أن تتوفر الإمكانيات لترميمه (Earl,2001).

وصف مُوجز لعصر ابن جبير ورحلته

1. عصر ابن جُبير: محمد بن أحمد بن جُبير، المُلقّب بـ: الكناني، والأندلسي، والشّاطبي، والبلنسي، وأبو الحسن، وابن جُبير(غرايبة، 2009)، وُلد بمدينة بلنسية بالأندلس، ينحدر من أسرة عربية عريقة، عاش في عصرٍ تتنازعه عدّة قوى هي:

الموحدون (1121م/ 514هـ- 667/1269هـ): تأسست هذه الدولة على يد قبيلتي مصمودة من المغرب وزناتة من الجزائر الأمازيغيتين، وأطلق عليهم تسمية" الموحدين "لكون أتباع هذه المدرسة كانوا يدعون إلى توحيد الله، وقد حكموا بلاد المغرب (المغرب، والجزائر، وتونس، وليبيا)، وهم أول من وحد بلاد المغرب كله عدا برقة وما يليها شرقا إلى حدود مصر. (موسى، 1991).

الأيوبيون (1174م/569هـ-1342م/742هـ): أو بنو أيوب، أسرة مسلمة حكمت أجزاء واسعة من المشرق العربي خلال القرنين الثاني عشر والثالث عشر للميلاد، وقد تأسست الدولة الأيوبية على يد السلطان صلاح الدين الأيوبي في مصر ثم امتد حكمه إلى الشام، والحجاز، وشمال العراق، وديار بكر بجنوب تركيا، وجنوب اليمن في القرنين (الصلابي، 2011)، وقد أشار ابن جُبير لهذا القائد، وذكر عدله ومآثره ومفاخره في البناء والإعمار (ابن جبير، 1986).

العبّاسيون (750م/132هـ-1258م/655هـ): أو الخلافة العباسية أو العباسيون، وكانت في قمّة ضعفها في عهد ابن جبير الذي وصف حاضرتها بغداد فقال: "لقد ذهب أكثر رَسْمها ولم يبق منها إلاّ شهير اسمها وهي كالطَّلَلْ الدّارس والأثَر الطامس أو تمثال الخيال الشاخص فلا حسّ فيها يستوقف البصر إلاّ دجلتها التي هي بين شرقيها وغربيها منها كالمرآة المجلوّة بين صفحتين"(ابن جبير، 1986).

الصليبيون (1096/ 489هـ - 1291/ 689هـ): حركه وجيوش أوروبيه مسيحيه لاتينيه (كاثوليكيه) هاجمت الشرق الأوسط، على شكل مجموعة من الحملات والحروب المتتالية، وبلغ عددها تسع حملات ابتدأت الأولى عام 1096م،وابتدأت التاسعة عام 1271 وكانت في مُجملها حملات دينية وتحت شعار الصليب من أجل الدفاع عنه، وذلك لتحقيق هدفهم الرئيسي وهو السيطرة على ألأراض المقدسة، وقد استطاعوا إقامة العديد من الإمارات والممالك أقدمها إمارة " الرها" وكانت واحدة من أهم الإمارات الصليبية في المشرق، وذلك لقوة تحصيناتها، ونظرًا لما كانت تسببه من تهديدات وأخطار على لمناطق الإسلامية المجاورة لها (الرويضي، 2002)، وقد عاصر ابن جبير نهايات الحملة الصليبية الثانية، وبدايات الحملة الصليبية الثانية (1149م/544هـ-1189م/584هـ).

علاوة على القوى السّابقة كانت هناك قوى كثيرة في الموصل وخراسان وغيرها، ولذا تعدّدت المرجعيات العصبية والفقهية (الدينية)، وضَعُفَ الأمن. (غرايبة، 2009).

2. رحلة ابن جُبير: ابتدأت رحلة ابن جُبير من غرناطة في الأندلس يوم الاثنين 19 شوال 578 بحراً عبر البحر المتوسط ووصل مدينة الإسكندرية على البرّ العربي الإفريقي في 29 ذي القعدة عام 578هـ حيث ابتدأت رحلته البريّة عبر خمسة أقاليم جغرافية هي:

1. البر الإفريقي(في مصر والسودان).
2. العــراق.
3. شبه الجزيرة العربية (الحجاز).
4. الجزيرة الفراتيّة.
5. بلاد الشام.

هذه الأقاليم وما فيها من مدن هي محور هذه الدراسة.

التوزيع الجغرافي للمدن العربية الإسلامية في رحلة ابن جبير

وأنواع مكوّنات النسيج العمراني الأساسيّة في كلٍّ منها:

1. التوزيع الجغرافي لعدد ونسب المدن العربية الإسلامية في رحلة ابن جبير:

ويوضّحها الجدول (1) والشكل (2) التي تُشير إلى أن ابن جبير مرّ على 37 مدينة، واعتُمِدَ لمفهوم المدينة قول ابن جبير في تصنيفه للمستقرات التي مرّ بها في رحلته قيد الدراسة، ومن الجدول والشكل المذكوريْن يتبيّن بأنّ المدن المصريّة والسودانية احتلت المرتبة الأولى في عددها(12 مدينة) وبنسبه 32,4%، تلتها مدن الشام(10) وبنسبة 27%، فمدن الجزيرة الفراتيّة(8) وبنسبة 21,62%، فمدن العراق(5) وبنسبة 13,51%، وأخيراً شبه الجزيرة العربية (مدينتان) وبنسبة 5,4% نظراً لطبيعتها الصّحراويّة.

الجدول (1) المدن العربية الإسلامية في رحلة ابن جُبير

الإقليم الجغرافي	العدد	%	أسماء المـــدن
البر الإفريقى (فى مصر والسودان)	12	32.34	الإسكندرية، القاهرة، مصر، منيه ابن الخصيب، أسيوط، اخميم، دشنه، دندره، قنا، قفط، قوص، عيذاب.
شبه الجزيرة العربية	2	5.41	مكة المكرمة، المدينة المنورة
العراق	5	13.51	الكوفة، الحلة، بغداد، سر من رأى، تكريت،
الجزيرة الفراتيّة	8	21.62	الموصل، نصيبين، دنيصر، داري، ماردين، رأس العين، حران، سروج
الشام	10	27.03	الرقة، رحبة الشام، منبج، حلب، حماه، حمص، دمشق، بانياس، عكه، صور
المجموع	37	100	

المصدر: عمل الباحث من رحلة ابن حبير

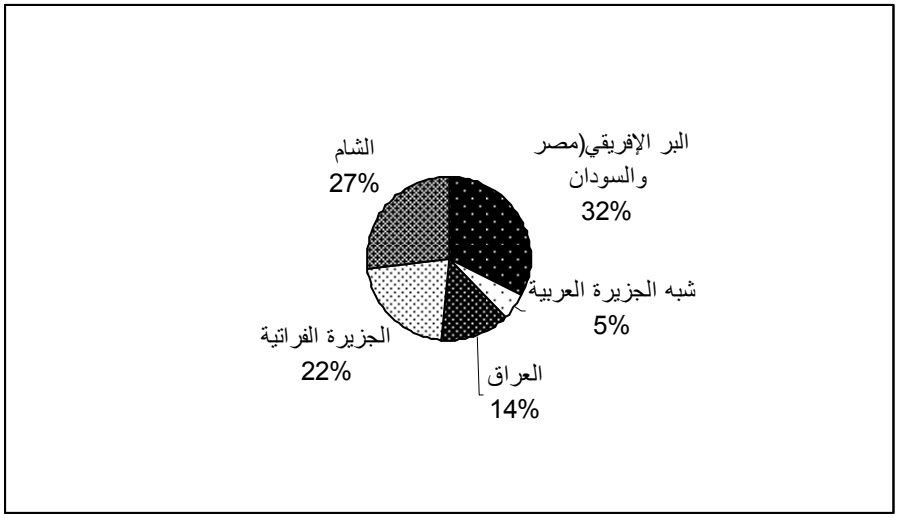

المصدر: عمل الباحث من بيانات الجدول (1).

الشكل (2) التوزيع الجغرافي لعدد ونسبة توزيع المدن العربية الإسلاميّة في رحلة ابن جبير

2. التوزيع الجغرافي لأنواع مكوّنات النسيج العمراني للمدن العربية الإسلامية:

أسلوب الدّراسة: اعتُمد في هذه الدراسة على: كتاب رحلة ابن جُبير الموسوم: "رسالة اعتبار الناسك في ذكر الآثار الكريمة والمناسك" كمصدرٍ أساسيٍّ في دراسة التوزيع الجغرافي للمدن العربية الإسلاميّة، فتمّ توزيع المدن على خمسة أقاليم جغرافية، رُسِمَ لها(الأشكال) ذوات الأرقام 3، و4، و5، و6، و7، وتمّ تصمّيم جدولٍ لكل إقليمٍ، حيث وُزّعَتْ المدن على المحور العمودي، وعلى المحور الأفقي وأمام كل مدينة كُتِبَ أحد عشر مُكوّناً عمرانيّاً أساسيّاً، تُشكّل في مُجملها الملامح العامّة للنسيج العمراني للمدينة، وتمّ تعبئة كل جدول بوضع إشارة(+) للمكوّن العمراني الموجود وحسب ما أورده ابن جبير في رحلته، فتشكّلت الجداول (2، و3، و4، و5، و6).

ومن الجدير بالذكر أنّ ابن جبير كان يُسهب في تعداد ووصف هذه المكوّنات لبعض المدن في حين كان يقتضب في مدنٍ أخرى، وسبب ذلك بأنّه كان يُقيم في بعضها فيُفصّل، أو كان يمرّ مروراً في البعض الآخر فيوجز عنها، ومن أمثلة ذلك حديثه الطويل عن القاهرة من حيث مشاهد أهل البيت، ومشاهد الشريفات، ومشاهد بعض أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم، ومشاهد الأئمة العلماء الزهاد، وقلعة القاهرة، ومارستان المجانين، ومسجد أحمد بن طولون، ومآثر السلطان ومفاخره، وروضة النيل، وعدل صلاح الدين (ابن جبير، 1986: 18–29)، كما أسهب كثيراً عن مدينة مكة المكرمة (ابن جبير، 1986:53– 149)، وبالمقابل كان ابن جبير مُقلاً في حديثه عن بعض المدن لعدم إقامته بها مثل: مدينة فقط في مصر(ابن جبير،1986: 37)، ومدينتا دارى وماردين في الجزيرة الفراتية (ابن جبير،1986: 193)، ومدينة رحبة الشام (ابن جبير، 1986: 200).

مدن مصر والسودان (البر الإفريقي): أشار ابن جبير إلى 12 مدينة أقام أو مرّ بها كما يوضّح ذلك الشكل (3) والجدول (2).

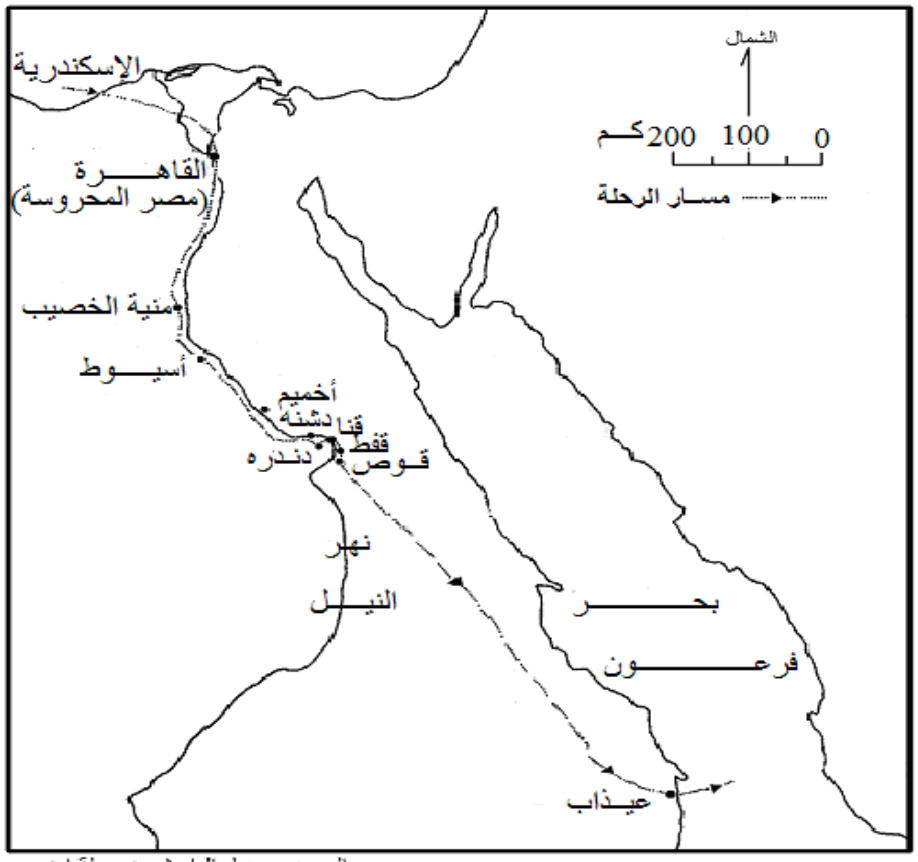

المصدر: عمل الباحث من رحلة ابن جبير

شكل رقم(3)المدن العربية الإسلامية في البر الإفريقي(مصروالسودان)

الجدول (2) مدن البر الإفريقي(مصر والسودان) في رحلة ابن جبير والمكوّنات العمرانية الأساسيّة في كلٍّ منها

م	المدينة	جامع	سور	سوق	قيسارية	مدرسة	خانقاه	قلعة حصن	مارستان	حمّام	خان	مقبرة
1	الإسكندرية	+		+		+			+	+		
2	القاهرة	+	+	+		+		+	+	+	+	+
3	مصر	+		+				+				+
4	منية ابن الخصيب	+		+		+				+		
5	أسيوط	+	+	+								
6	أخميم	+	+	+								
7	دشنه	+	+	+								
8	دندرة	+										
9	قنا	+										
10	قفط											
11	قوص	+		+							+	
12	عيذاب	+									+	

ومن دراسة الشكل (3) والجدول (2) المذكوريْن سابقاً يتبيّن ما يلي:

أ- قطع ابن جبير مسافة 1800كم تقريباً بين مدينتي الإسكندرية المصرية وعيذاب السودانية، مرّ خلالها على اثنتي عشر مدينة، إحدى عشرة منها تُعتبر مدناً مصرية تقع في النصف الشمالي من هذا المسار(على جوانب نهر النيل، في حين يخلو النصف الجنوبي من هذا الطريق من وجود المدن لطبيعة المنطقة الصحراوية، باستثناء مدينة وميناء عيذاب السوداني على البحر الأحمر).

ب- يُعتبر المسجد هو المكوّن العمراني الرئيسي في هذه المدن، يليه السّوق (ويقتصر على7 من المدن المصرية)، أما السور فيوجد في مدن القاهرة (أكبر المدن واهمّها) وأسيوط(أكبر مدن الصّعيد)، وفي مدينتي أخميم ودشنا الواقعتيْن في قلب الصّعيد (ابن جبير،1986: 18-39).

ج- تعتبر مدينة القاهرة أهم المدن التي مرّ بها ابن جبير، وفيها جميع المكوّنات العمرانيّة باستثناء القيساريّة التي لم يُشر ابن جبير إلى وجودها في جميع المدن في هذه المرحلة (المصرية السودانية)، ويبدو أن هذا المصطلح" عراقي شامي"، وأورده ابن جبير في مدينة الموصل وبعض مدن الجزيرة الفراتية والمدن الشاميّة.

د - تأتي مدينة الإسكندرية بالمرتبة الثانية بعد القاهرة من حيث أهميّتها العمرانية، وتأتي بعدها مدينة منية ابن الخصيب الواقعة في منطقةٍ انتقاليّة بين الوجه البحري والصعيد(ابن جبير،1986: 14-30).

هـ- يبدو أنّ منطقة الصعيد كانت عامرة بالمدن لغناها الطبيعي المُتمثّل بوفرة المياه والتربة الصالحة للزراعة علاوة على موقعها الهام، فقد ذكر ابن جبير سبع مدنٍ صعيدية هي: أسيوط، وأخميم، ودشنة، ودندره، وقنا، وقفط، وقوص.

و- نماذج من كلام أبن جبير عن المدن المصريّة السودانيّة:

- قنا: "من مدن الصعيد بيضاء أنيقة المنظر ذات مبان حفيلة" (ابن جبير،1986:37).

- قفط: "وهي من المدن المذكورة في الصعيد حُسناً ونظافة بُنيان وإتقان وضع" (ابن جبير،1986:37).

- قوص: "متسعة المرافق كثيرة الخلق لكثرة الصادر والوارد من الحجاج والتجار اليمنيين والهنديين وتجار ارض الحبشة لأنها محط للرحال ومجتمع الرفاق، وملتقى الحجاج المغاربة والمصريين والاسكندريين وما يتصل بهم" (ابن جبير، 1986:37).

- عيذاب: "أحفل مراسي الدنيا لأن مراكب الهند واليمن تحط فيها" (ابن جبير،1986:41).

مدن شبه الجزيرة العربية(الحجاز ونجد): أشار ابن جبير إلى وجود مدينتين فقط في مسار الحجاز ونجد، أقام أو مرّ منها كما يوضّح ذلك الشكل (4) والجدول (3).

ومن دراسة الشكل والجدول (3) نستنتج ما يلي:

أ- كان غرض ابن جبير من هذه الرحلة أداء فريضة الحج بالدرجة الأولى، ولذلك فقد أسهب في حديثه كثيراً عن مدن الحج (مكة المكرمة والمدينة الزاهرة)، وخاصّة وصف الحرميْن المكي والمدني، لكنّ وصفه عن مكة المكرمة كان أكثر، فهي مدينة الحج الأساسيّة، كما أنّه أقام فيها مدة تُقارب نصف المدة الزمنية لرحلته، حيث تحدّث طويلاً عن مشاهدها المقدسة، وعن مكوّنات المدينة العمرانيّة (الدينية، والتجارية، والخدميّة واستغرق ذلك من صفحة 51 إلى صفحة 142 أي ما يُعادل 30% من حجم ما كتبه عن كل رحلته هذه، ولا غرابة في ذلك فهي مدينة الحج والهدف من رحلته، أما المدينة المنوّرة فكان الحديث عنها أقل، حيث وصف مشاهدها الدينية والعمرانيّة بحوالي 12 صفحة (ابن جبير،1986).

ب- بالرغم من طول المسافة التي قطعها ابن جبير في شبه الجزيرة العربية (1800كم تقريباً) إلاّ أنّ ظاهرة وجود المدن اقتصرت على إقليم الحجاز، في حين خلا إقليم نجد من وجود المدن، وهذا يرجع إلى طبيعته الصحراوية، وطبيعة السكان القبلية الرعويّة غير المُستقرة.

ج- قطع ابن جبير مسافة 1400 كم من المدينة المنوّرة إلى مدينة الكوفة لم يُشر خلالها إلى وجود مدن تُذكر، وأشار إلى قرى وبلداتٍ مثل: قرى سميرة، وفيد، وزبالة، وواقصة في نجد، وبلدة النجف في العراق(ابن جبير،1986: 162-167).

د- مُقتطفات موجزة من كلام أبن جبير عن مدن الحجاز(مدن الحج):

- مكة المكرمة:" دخلنا مكة، حرسها الله... فألفينا الكعبة الحرام عروساً مجلوة مزفوفة إلى جنة الرضوان محفوفة بوفود الرحمن...البيت المكرم له أربعة أركان...وللحرم سبع صوامع... وللحرم أربعة أئمة سنيّة وإمام خامس لفرقة تُسمّى الزيديّة... وللحرم تسعة عشر باباً... سوق المسجد الحرام نزّهه الله وشرّفه، سوق عظيمة يُباع فيه من الدقيق إلى العقيق، ومن البُر إلى الدُر(ابن جبير، 1986: 51-142).

- المدينة المنورة: نزلنا بظاهر المدينة الزهراء، والتربة البيضاء، والبقعة المشرفة بمحمد سيد الأنبياء صلى الله عليه وسلم...المسجد المبارك مستطيل، وتحفّه من جهاته الأربع بلاطات مستديرة... وللمدينة المكرمة أربعة أبواب(ابن جبير،1986: 150-156).

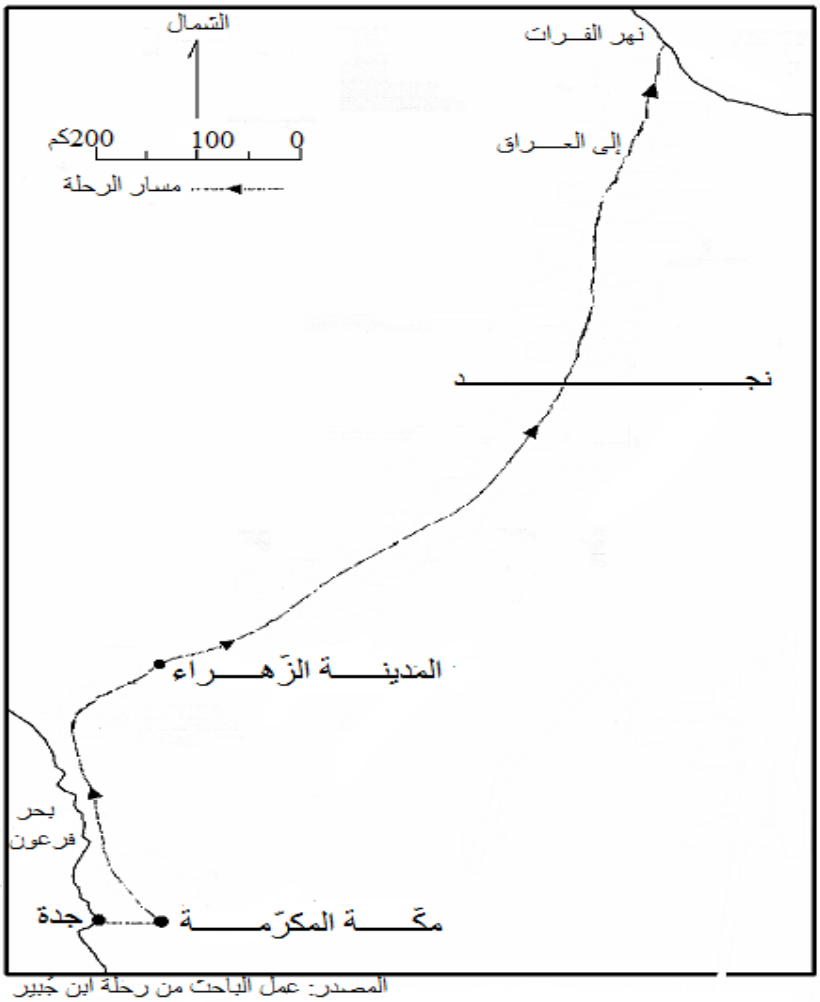

شكل رقم(4) المدن العربية الإسلاميّة في شبه الجزيرة العربية

الجدول (3) مدن شبه الجزيرة العربية في رحلة ابن جبير والمكوّنات العمرانية الأساسيّة في كلٍّ منها

م	المدينة	جامع	سور	سوق	قيسارية	مدرسة	خانقاه	قلعة حصن	مارستان	حمّام	خان	مقبرة
1	مكة المكرمة	+		+		+				+	+	+
2	المدينة المنوّرة	+		+		+				+	+	+

المصدر: عمل الباحث من رحلة ابن جبير

مدن العراق: وفي هذه المرحلة ذكر ابن جبير خمس مدن، أقام أو مرّ بها كما يوضّح ذلك الشكل (5) والجدول (4).

ومن دراسة الشكل(5) والجدول (4) نستنتج ما يلي:

أ- تقع جميع هذه المدن على نهري الفرات ودجلة، حيث ابتدأت رحلته بمدينة الكوفة، تلتها مدينة الحلة، فمدينة بغداد عاصمة الدولة العبّاسيّة وحاضرة العالم الإسلامي، فمدينة سُرّ من رأى التي لم يدخلها ابن جُبير وإنما شاهدها إلى الشرق من مسار رحلته، وأخيراً مدينة تكريت.

ب- احتلت بغداد المرتبة الأولى من حيث تعدّد وتنوّع المكوّنات العمرانيّة، حيث تتوافر فيها جميع المكوّنات الأساسيّة باستثناء القيسارية والقلعة والحصن.

د- الجوامع والمساجد هي أكثر المكوّنات العمرانيّة انتشاراً في المدن العراقية.

هـ- في هذه المرحلة ابتدأت ظاهرة وجود المنشآت العمرانيّة الدفاعيّة بالظهور، حيث وجود السور حول مدن: الحلة، وبغداد، وتكريت، ووجود القلاع والحصون في مدينة تكريت.

و- كما ظهرت في هذه المرحلة المنشآت الخدميّة بشكلٍ عامّ مثل: الأسواق في الحلة، وبغداد، وتكريت، والمدارس

والخانقاهات في بغداد وتكريت، والمارستانات، والحمامات، والخانات، والمقابر في بغداد بشكلٍ خاص.

ز – نماذج من كلام ابن جبير عن بعض مدن العراق:

– مدينة الكوفة: "مدينة كبيرة عتيقة البناء، قد استولى الخراب على أكثرها، فالغامر منها أكثر من العامر"(ابن جبير1986: 167–168).

– مدينة بغداد: رغم أنّ بغداد عاصمة الخلافة الإسلاميّة إلاّ أنّها أثارت شفقة ابن جبير إذ يقول:" ذهب رسمها ولم يبق منها إلاّ شهير اسمها، وأشار إلى قصور الخليفة فيها، وذكر بأنّ حماماتها لا تُحصى عدّة، كما أشار إلى أنّ مدارسها نحو الثلاثين(ابن جبير، 1986: 173–183).

– مدينة سُرّ من رأى:" ونزلنا مع الصباح من يوم الخميس الثامن عشر لصفر على شط دجلة بمقربةٍ من حصن يُعرف بالمعشوق، ويُقال: انه كان مُتفرَّجاً لزبيدة ابنة عم الرشيد وزوجه، وعلى قبالة هذا الموضع في الشّط الشّرقي مدينة سُرّ مَن رأى، وهي اليوم عبرةُ من رأى: أين معتصمها، وواثقها، ومتوكّلها؟! مدينة كبيرة قد استولى الخراب عليها إلاّ بعض جهات منها هي اليوم معمورة"(ابن جبير،1986: 186).

– مدينة تكريت: "مدينة كبيرة واسعة الأرجاء، فسيحة الساحة، غاصّة بالخلق، أهلها أحسن أخلاقاً وقسطاً في الموازين من أهل بغداد، ودجلة منها في جوفيها، ولها قلعة حصينة على الشط هي قصبتها المنيعة، ويطيف بالبلد سور قد أثر الوهن فيه، وهي من المدن العتيقة المذكورة" (ابن جبير،1986: 186).

مدن الجزيرة الفراتيّة: ذكر ابن جبير ثماني مدنٍ فيها، كما يوضّح ذلك الشكل (6) والجدول (5).

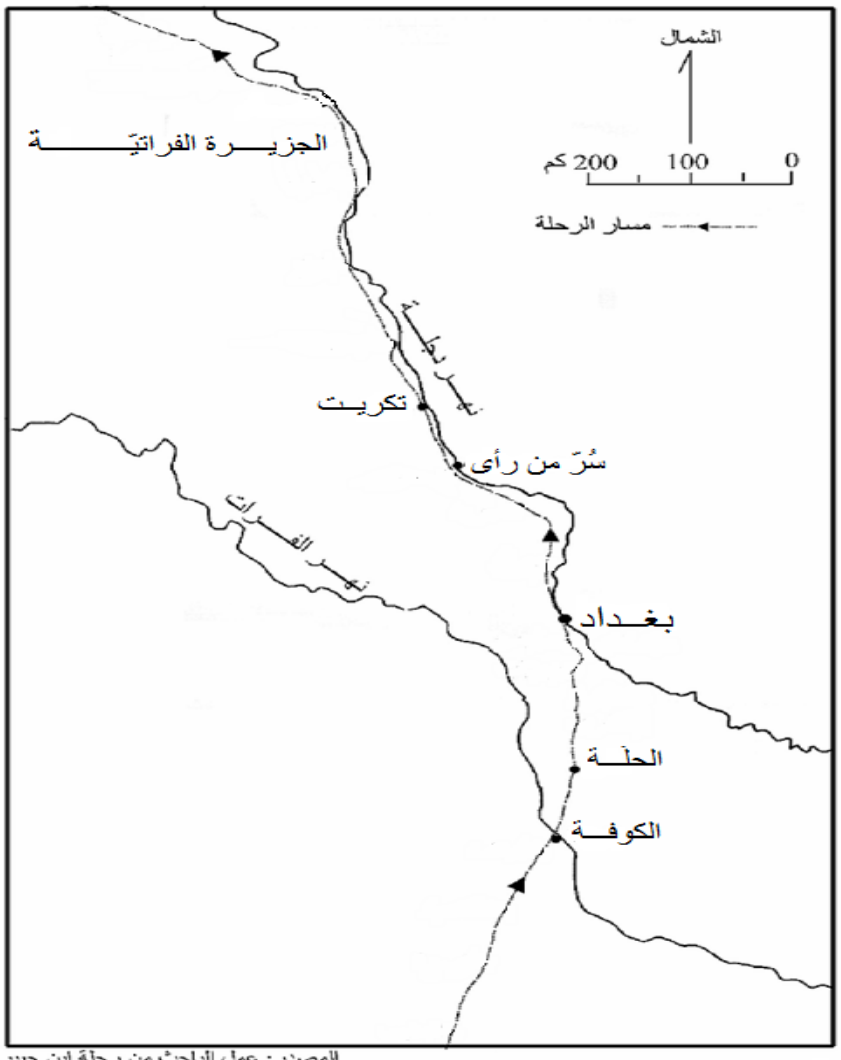

المصدر: عمل الباحث من رحلة ابن جبير

شكل رقم(5) المـدن العربيّـة الإسلاميّة في العـراق

الجدول (4) المدن العراقيّة في رحلة ابن جبير والمكوّنات العمرانية الأساسيّة في كلٍّ منها

م	المدينة	جامع	سور	سوق	قيسارية	مدرسة	خانقاه	قلعة حصن	مارستان	حمّام	خان	مقبرة
1	الكوفة	+										+
2	الحلـة	+	+	+								
3	بغداد	+	+	+		+	+		+	+	+	+
4	سُرّ من رأى											
5	تكريت	+	+	+		+		+				

المصدر: عمل الباحث من رحلة ابن جبير

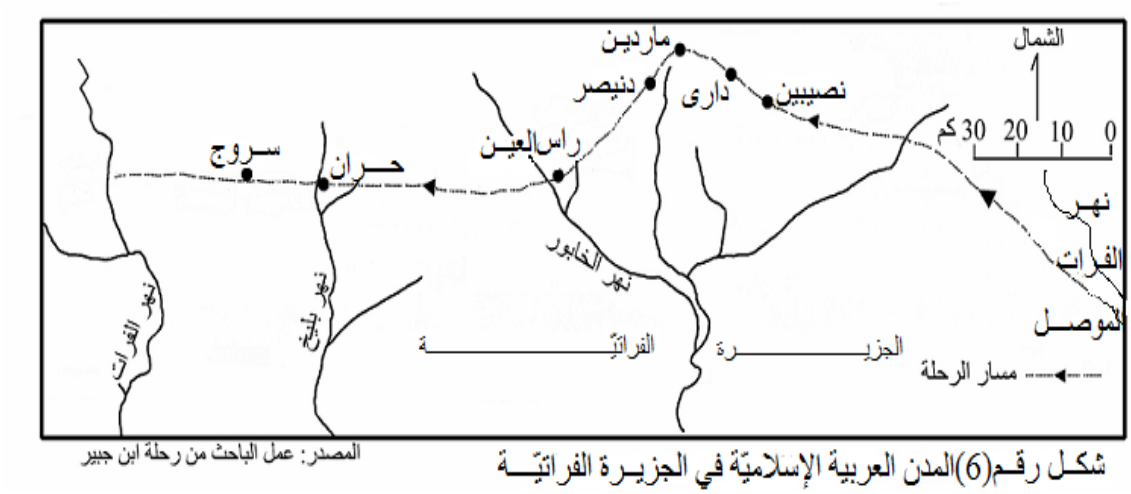

المصدر: عمل الباحث من رحلة ابن جبير

شكل رقم(6)المدن العربية الإسلاميّة في الجزيرة الفراتيّة

الجدول (5) مدن الجزيرة الفراتيّة في رحلة ابن جبير والمكوّنات العمرانية الأساسيّة في كلٍّ منها

م	المدينة	جامع	سور	سوق	قيسارية بازار	مدرسة	خانقاه	قلعة حصن	مارستان	حمّام	خان	مقبرة
1	الموصل	+	+	+	+	+	+	+	+	+	+	+
2	نصيبين	+	نهر			+			+		+	
3	داري							+				
4	ماردين							+				
5	دنيصر	+		+	+	+				+	+	
6	رأس العين	+				+	+			+		
7	حرّان	+	+	+		+		+	+			+
8	سروج							+				

المصدر: عمل الباحث من رحلة ابن جبير

ومن دراسة الشكل (6) والجدول(5) نستنتج ما يلي:

1- قطع ابن جبير مسافة 700كم في الجزيرة الفراتية، أشار خلاله إلى ثمان مدن، ابتدأت رحلته في مدينة الموصل وأشار إلى قيساريتها وقلعتها العظيمة، ومنها إلى مدينة نصيبين حيث أشار إلى وجود جامع فيها، ومدرسة، ومارستان، وخان، ومنها شاهد مدينتي دارَى وماردين، ثم إلى مدينة دنيصر، ورأس العين، وحرّان، ومدينة سروج المُطلّة على الديار الشاميّة، وتعتبر الجزيرة الفراتيّة من المناطق الكثيفة بوجود ظاهرة المدن وذلك لغناها بالزراعة والمياه، حيث تقع مدنها في المنابع العليا لرافدي نهر الفرات وهما:الخابور والبليخ (ماردِيني، 1986).

2- توجد ظاهرة كلٍّ من القلاع والحصون في الجزيرة الفراتية بشكلٍ ملحوظ، وأشار ابن جبير إلى وجود ستّ قلاع في هذه المنطقة في مدن:الموصل، ودارَى، وماردين وذكر بأنها قلعة كبيرة هي من قلاع الدنيا الشهيرة، كما أشار إلى وجود قلعة في

مدينة حران الحصينة، والقلعة المجاورة لمدينة سروج (قلعة نجم) والواقعة على شط الفرات وهو الحد الفاصل بين الشام والجزيرة الفراتيّة (ابن جبير، 1986).

3- تعتبر مدينة حرّان أشهر المدن في الجزيرة الفراتية بعد الموصل، وتوجد فيها معظم المكوّنات العمرانيّة الأساسيّة مثل: الجامع، والمسجد، والسّور، والسّوق، والمدرسة، والقلعة، والمارستان، والمقبرة، وتأتي مدينة دنيصر بعدها من حيث الشّهرة، وتمتاز عن حرّان بوجود المكونات العمرانيّة الخدميّة مثل: البازار، والحمام، والخان، علاوة على السوق والمدرسة، أما مدينة رأس العين التي تعتبر المدينة الرابعة في هذه الديار فتمتاز بوجود خانقة.

4- نماذج مما كتبه أبن جبير عن مدن الجزيرة الفراتية:

- مدينة الموصل:" مدينة عتيقة ضخمة، حصينة فخمة، في أعلى البلد قلعة عظيمة، ينتظمها سور عتيق مشيد البروج، وتتصل بها دور السلطان، وللبلد ربض كبير فيه المساجد والحمامات والخانات والأسواق، وفي داخل البلد قيسارية للتجار كأنها الخان العظيم وفي هذا التل بناء عظيم هو رباط يشتمل على بيوت ومقاصر ومطاهر وسقايات"(ابن جبير،1986: 189).

- مدينة نصيبين: "شهيرة العتاقة والقدم، ظاهرها شباب، وباطنها هرم... ينساب بين يديها نهر قد انعطف عليها انعطاف السوار...وعلى النهر المذكور جسر معقود من الحجارة يتصل بباب المدينة القبلي. وفيها مدرستان ومارستان واحد...وكان نزولنا بها في خان خارجها"(ابن جبير،1986: 192-193).

- مدينتا داری وماردين: لمْ يزرْهما ابن جبير ولكنّه ذكرهما قائلاً:" عن يمين طريقنا، بقرب من صفح الجبل، مدينة دارَى العتيقة، وهي بيضاء كبيرة، لها قلعة مُشرقة، ويليها مدينة ماردين، وهي في صفح جبل في قنّته لها قلعة كبيرة هي من قلاع الدّنيا الشّهيرة، وكلتا المدينتيْن معمورة"(ابن جبير،1986: 193).

- مدينة دنيصر:"هي في بسيط من الأرض فسيح، وحولها بساتين الرياحين والخضر....فكان مقامنا بدنيصر إلى أن صلينا الجمعة...وتلوّم أهل القافلة بها لشهود سوقها، لأنّ بها يوم الخميس ويوم الجمعة ويوم السبت ويوم الأحد بعدها سوق حفيلة، يجتمع لها أهل هذه الجهات المجاورة لها والقرى المُتّصلة بها، لأن الطريق كلّها يميناً وشمالاً قرى مُتّصلة وخانات مُشيدة، ويُسمّون هذا السوق المجتمع إليها من الجهات البازار" (ابن جبير،1986: 193-194).

- مدينة رأس العين:"هذا الاسم لها من أصدق الصفات... وينقسم ماء هذه العين نهرين: أحدهما آخذ يميناً، والآخر يساراً، فالأيمن يشق خانقة مبنية للصوفيّة، والغرباء بإزاء العين، وهي تسمى الرباط أيضاً... وبالقرب من هذه الخانقة بحيث تناظرها مدرسة بإزائها حمّام"ابن حبير،1986: 195-196).

- حران: "بلد لا حُسن لديه، ولا ظل يتوسّط بُرديه... ولهذه أسواق حفيلة الانتظام، ومدرسة ومارستان، وهي بلدة كبيرة، وسورها متين حصين مبني بالحجارة المنحوتة المرصوص بعضها على بعض في نهاية القوة، وكذلك بُنيان الجامع المكرم، ولها قلعة حصينة"(ابن حبير،1986: 197-199).

- مدينة سروج: "واجتزنا على قرية تُعرف بالبيضاء فيها خان كبير جديد، وهو نصف الطريق من حران إلى الفرات، ويقابلها على اليمين من الطريق، في استقبالك الفرات إلى الشام مدينة سروج، وفيها البساتين والمياه"(ابن جبير،1986: 200).

مدن الشام: تعتبر بلاد الشام آخر المراحل في مسار رحلة ابن جبير، فهو يقول:" وإذا عبرت الفرات حصلتَ في حدّ الشام وسرتَ في طاعة صلاح الدين إلى دمشق(ابن جبير، 1986: 200)، أشار ابن جبير إلى عشر مدن في بلاد الشام كما في الشكل (7) والجدول (6).

ومن دراسة الشكل (7) والجدول (6) السّابقيْن نستنتج:

1- دخل ابن جبير إلى بلاد الشام بعد اجتيازه نهر الفرات، حيث ذكر 10 مدن شامية، فيقول": وعن يسار الطريق، في استقبالك الفرات إلى الشام، مدينة الرقة، وهي على الفرات، وتليها رحبة مالك بن طوق وتُعرف برحبة الشام، وهي من المدن الشهيرة، ثم رحلنا منها عند مضي ثلث الليل الأول وأسرينا ووصلنا مدينة منبج"(ابن جبير،1986: 200)، وبعدها وصل مدينة حلب وبالغ في وصف قلعتها وأسوارها، وأسواقها، وقيساريتها، وجامعها المكرم، ومدارسها وخاناتها، ومارستانها، وتابع بعدها إلى حماه، وحمص، ودمشق وأسهب في وصف عمرانها وخاصّة جامعها المكرّم، ومنها إلى مدن بانياس، وعكا، وصور، ومن هناك واصل رحلة العودة بحراً إلى الأندلس.

2- أبرز المكوّنات العمرانيّة في مدن الشام- بعد المساجد- هي المكوّنات الدفاعيّة (كالقلاع، والحصون، وأسوار المدن)، فهو يقول:" ومدن هذه الجهات كلّها لا تخلو من القلاع السلطانيّة"(ابن جبير،1986: 201)، لأنّها خط الدفاع الأول في وجه الخطر الصليبي، وتعتبر القلعة أهم المنشآت العمرانيّة الدفاعية وتكاد لا تخلو مدينة شامية منها، ومن أبرزها القلاع الموجودة في مدن: الرقة، ومنبج، وحلب، وحماه، وحمص، ودمشق، وبانياس، ويأتي السّور بعد القلعة من حيث الأهميّة الدفاعيّة في هذه المدن، وأشار ابن جبير إلى وجوده في المدن التالية: الرّقة، ومنبج، وحلب، وحماه، وحمص، ودمشق، وبانياس، وصور.(ابن جبير، 1986: 200-238).

3- تمتاز مدن بلاد الشام بكثافة المُنشآت العمرانيّة الخدميّة، حيث توجد:

- الخدمات التجارية في أسواق، ودكاكين، ومخازن: الرقة، ومنبج، وحلب، وحمص، وحماه، ودمشق، وقيساريتي حلب، ودمشق.
- الخدمات التعليمية في مدارس: حلب، وحماه، وحمص، ودمشق، وخانقة دمشق.
- الخدمات الصحيّة في مارستانات وحمامات: حلب، وحماه، ودمشق، علاوة على خدمات أخرى مثل خانات: منبج، وحلب، وحماه، وحمص، ودمشق.
- تُعتبر مدينة دمشق أشهر المدن الشّاميّة على الإطلاق، حيث توجد فيها كافّة المُنشآت العمرانيّة، تليها مدينة حلب، ثم مدينتي حماه وحمص... (ابن جبير،1986: 200-238).

الجدول (6) المدن الشاميّة في رحلة ابن جبير والمكوّنات العمرانية الأساسيّة في كلٍّ منها

م	المدينة	جامع	سور	سوق	قيسارية	مدرسة	خانقاه	قلعة حصن	مارستان	حمّام	خان	مقبرة
1	الرّقة		+	+				+				
2	رحبة الشام											
3	منبج	+	+	+				+			+	
4	حلب	+	+	+	+	+		+	+	+	+	+
5	حماه	+	+	+		+		+	+	+	+	
6	حمص	+	+	+		+		+			+	+
7	دمشق	+	+	+	+	+	+	+	+	+	+	+
8	بانياس		+					+				
9	عكه	+										
10	صور	+	+									

المصدر: عمل الباحث من رحلة ابن جبير

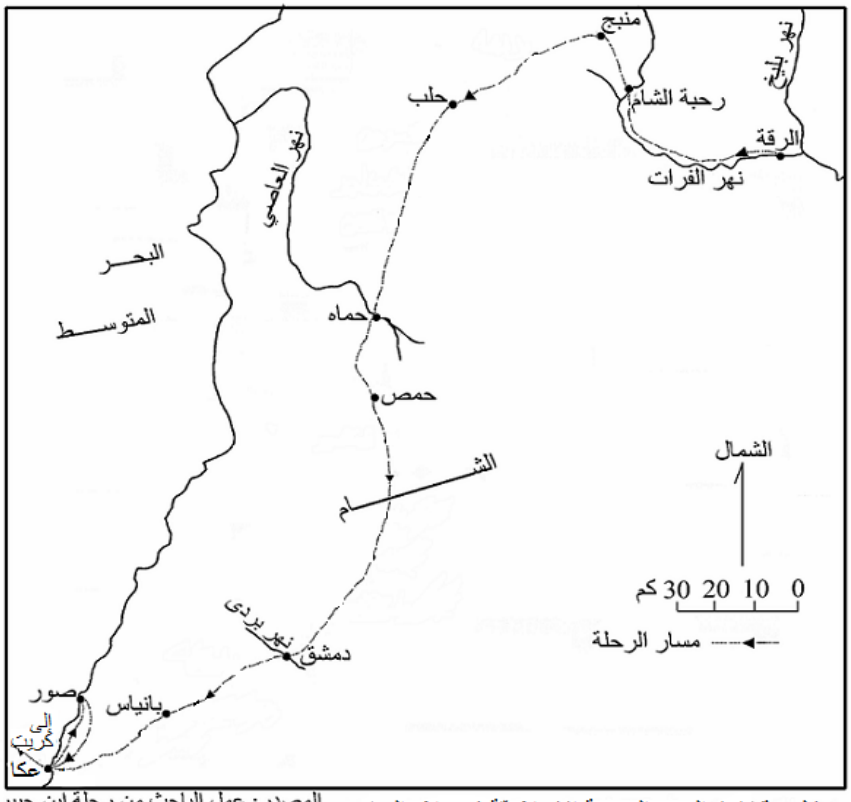

المصدر: عمل الباحث من رحلة ابن جبير

شكل رقم(7) المدن العربية الإسلاميّة في بلاد الشام

5- نماذج مما كتبه ابن جبير عن مدن الشام:

- منبج: " بلدة فسيحة الأرجاء، صحيحة الهواء، يحف بها سور عتيق...وأسواقها وسككها فسيحة مُتّسعة، ودكاكينها وحوانيتها كأنّها الخانات والمخازن اتّساعاً وكبراً، وأعالي أسواقها مسقفة"(ابن جبير،1986: 201).

- حلب: "لها قلعة شهيرة الامتناع، بائنة الارتفاع، معدومة الشبه والنظير بين القلاع... وأما قيساريتها فحديقة بستان نظافة وجمالاً، مطيفة بالجامع المكرم... داخلها المساكن السلطانية، والمنازل الرفيعة الملوكيّة... ولها ربض كبير فيه من الخانات ما لا يحصى عدده"(ابن جبير،1986: 202-205).

- حماه: "مدينة شهيرة في البلدان، قديمة الصحبة للزمان... وموضع هذه المدينة في وهدةٍ من الأرض... يرتفع لها جانبان: أحدهما كالجبل المُطلّ والمدينة العليا متصلة بصفح ذلك الجانب الجبلي... وسور المدينة العليا يمتد على رأس جانبها العلي... وللمدينة السفلى سور يحدق بها من ثلاث جوانب، لأن جانبها المتصل بالنهر لا يحتاج إلى سور، ربضها كبير فيه الخانات والديار، وله حوانيت يستعجل فيها المسافر حاجاته... والقلعة في ربوة منقطعة كبيرة مستديرة... ولها جامع كبير، ولها ثلاث مدارس، ومارستان على شط النهر بإزاء الجامع الصغير" (ابن جبير، 1986: 206-207).

- حمص: "فسيحة الساحة مستطيلة المساحة، نزهة لعين مُبصرها من النظافة والملاحة، وبقبلي هذه المدينة قلعة حصينة منيعة، عاصية غير مطيعة، وبشرقها جبّانة فيها قبر خالد بن الوليد، وأسوار هذه المدينة غاية في العتاقة والوثاقة... حمص كلها مارستان" (ابن جبير،1986: 208-209).

- دمشق: جنة المشرق، ومطلع حسنه المؤلق، وهي خاتمة بلاد الإسلام التي استقريناها، وعروس المدن التي اجتليناها، قد تحلّت بأزاهير الرياحين، وتجلّت في حلل سندسية من البساتين وصدق القائلين عنها: إن كانت جنة في الأرض فدمشق لا شك فيها، وإن كانت في السماء فهي بحيث تُسامتها وتُحاذيها، جامعها المكرم من أشهر جوامع الإسلام حُسناً...فيها أوقاف كثيرة... لها ثمانية أبواب... وبها نحو عشرين مدرسة، وبها مارستانان قديم وحديث، وهذه المارستانات مفخر عظيم من مفاخر الإسلام، والمدارس كذلك، ومن أحسن مدارس الدنيا مدرسة نور الدين، ومرافق الغرباء بها أكثر من أن يأخذها الإحصاء"(ابن جبير،1986: 210-231).

- بانياس: ثغر بلاد المسلمين، وهي صغيرة، ولها قلعة يستدير بها تحت السور نهر ويفضي إلى أحد أبواب المدينة، وكانت بيد الإفرنج فاسترجعها نورالدين، رحمه الله"(ابن جبير،1986: 246).

- عكا: "قاعدة مدن بلاد الإفرنج بالشام(مدينة محتلة من الصليبيين)، ومحط الجواري المنشآت في البحر كالأعلام، مرفأ كل سفينة، والمُشبّهة في عِظَمها بالقسطنطينية، مجتمع السفن والرفاق، وملتقى تجار المسلمين والنصارى من جميع الآفاق" (ابن جبير، 1986: 249).

- صور: مدينة محتلة من الصليبيين،"وهاتان المدينتان، عكا وصور، لا بساتين حولهما، وإنما هما في بسيط من الأرض أفيح مُتّصل بسيف البحر"(ابن جبير،1986: 255)، ومن مدينة صور سافر ابن جبير بحراً إلى مسينة من بلاد جزيرة صقلية، ومنها إل الأندلس.

النتائج والتوصيات

النتائج

1. يبلغ حجم كتاب ابن جُبير"رسالة اعتبار الناسك في ذكر الآثار الكريمة والمناسك" 272 صفحة، منها 244 صفحة تحدّث فيها عن136 مُستقرّاً سُكّانيّاً عربيّاً وإسلامياً (غرايبة، 2009: 165) منها37 مدينة عربية وإسلاميّة (من بداية دخوله برّاً لمدينة الإسكندريةً، وحتى نهاية عودته وخروجه بحراً من مدينة عكه)، وقد تفاوت حجم الحديث عن هذه المدن، حيث نالت مدينة مكة المكرمة ما نسبته 37,3% من هذا الحجم، تلتها مدينة دمشق (14.4%)، فالمدينة المنوّرة(5,3%)، ومدينتا القاهرة- مصر (4,9%)، ومدينة بغداد (4,5%)، ومدينة حرّان (1,6%)، في حين كان لـ30 مدينة (من أقاليم مصر، والعراق، والجزيرة الفراتية، وديار الشام)ما نسبته 32% فقط من الحديث.كما يوضّح الجدول (7) والشكل (8) الذي.

2. ومن خلال الدراسة التّحليليّة التّفصيليّة للمكوّنات العمرانيّة للمدن العربية الإسلاميّة التي زارها أو مرّ بها ابن جبير أمكن تصنيفها إلى الأنواع التاليّة:

أ- المباني السكنيّة: كالمساكن، والقصور، ودور الحكم.

ب- المباني الدّينيّة: كالمساجد، والمدارس ودور العلم، والخانقاهات والتّكايا، وبعض العناصر المعماريّة في المُنشآت الدّينيّة.

ج- المباني الدّفاعيّة: كالقلاع، والحصون، والأسوار.

د- المباني الخدميّة: وأهمّها الخدمات التّجاريّة(كالأسواق، والقياسر، والبازارات) والخدمات الصّحيّة (كالبيمارستانات)، والخدمات العامة (كالحمّامات، والخانات).

3. يعتبر المسجد من أكثر المكوّنات العمرانيّة انتشاراً في المدن العربية الإسلاميّة، ويعتبر المسجد الجامع من العناصر المركزية المحورية بهذه المدن، فهو قلبها النابض بالحياة وله دور أساسي في المجتمع الإسلامي (عبد الحق العُقبى، وابراهيم

خطيري، 1991).

الجدول (7) الوزن النّسبي للحديث عن المدن العربية الإسلامية في رحلة ابن جبير

م	المدينــة	الإقليـم الجغرافـي	عدد الصفحات	%
1	القاهرة– مصر	البر الإفريقي/ مصر	12	4,9
2	مكة المُكرّمة	الحجـاز	91	37,3
3	المدينة المنوّرة	الحجـاز	13	5,3
4	بغـداد	العـراق	11	4,5
5	حـرّان	ديار ربيعة وبكـر	4	1,6
6	دمشـق	الشّـام	35	14,4
7	باقي المدن(30 مدينة)	مصر، والعراق، وربيعة وبكر، والشام	78	32
مج	37		244	100

المصدر: عمل الباحث من رحلة ابن جبير

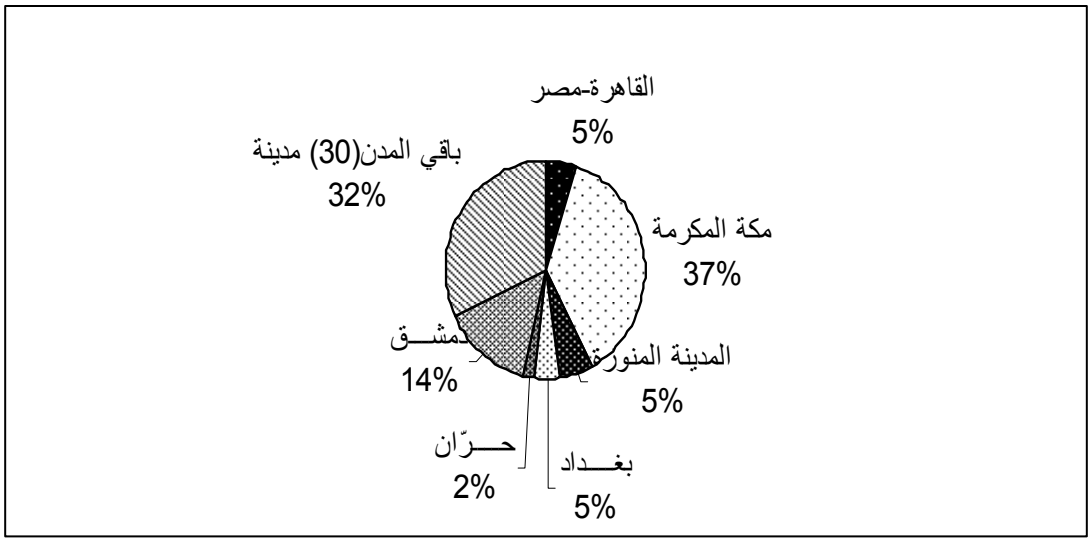

المصدر: الباحث من بيانات الجدول (7)

الشكل (8) الوزن النسبي للحديث عن المدن العربية الإسلامية في رحلة ابن جبير

4. من بين الـ37 مدينة عربية وإسلاميّة التي زارها ابن جبير في رحلته إلى الحج، امتاز النسيج العمراني في 11مدينة منها بالتنوّع والتكامل، وامتازت هذه المدن بتوفير كافّة المنشآت العمرانيّة الخدميّة لسكّانها، وكانت من كبريات المدن التي ذكرها ابن جبير في رحلته تلك، ومعظم هذه المدن كانت عواصم وحواضر عصرها أو عصور سابقة، أو كانت مدناً تاريخيّة عريقة، هذه المدن هي:

– مدينة القاهرة في إقليم البر الإفريقي(مصر).

– مكة المكرمة والمدينة المنورة في إقليم الحجاز (مدن الحج).

– بغداد في إقليم العراق.

– الموصل، وحرّان، ودنيصر في إقليم الجزيرة الفراتية.

– دمشق، وحلب، وحماة، وحمص في إقليم الشام.

5. من خلال التنوّع العمراني التي امتازت به المدينة العربية الإسلاميّة، وتنوّع وتكامل استعمالات الأرض فيها – كما وصف ابن جبير– يمكننا أن نستنتج بأنّ المعماري العربي المسلم استطاع أن يُبدع في العمران بما يتوافق مع ظروفه السياسيّة والدفاعيّة (دار الحكم، والقلاع، والحصون)، والاقتصاديّة (الأسواق والبازارات، والقيساريات)، والاجتماعيّة الخدميّة (المدارس، والخانقاهات، والبيمارستانات)، والبيئيّة (من خلال تصميم المساكن البيئية التي تستثمر خامات البيئة، وتوفّر لساكنيها الاحتياجات الأساسيّة من إضاءة طبيعيّة، وتهوية).

6. امتازت المدن العربية الإسلاميّة بشكلٍ عامٍّ بوجود

ظاهرة القلاع والحصون، والأسوار، كوسائل دفاعيّة عن المدينة، وخاصّة في المدن المُتاخمة للمناطق المُحتلة من الصليبيين، فعلى سبيل المثال أشار ابن جُبير إلى وجود 15 قلعة في المدن الـ37 التي ذكرها في رحلته، منها 11 قلعة في مدن الشام والجزيرة الفراتيّة التي كانت تُشكّل خط المواجهة مع الصليبيين، وعند التمعّن بالتوزيع الجغرافي لهذه القلاع نجد أنّ 7 منها توجد في مدن الشام وهي خط الدفاع الأول (الرقة، ومنبج، وحلب، وحماه، وحمص، ودمشق، وبانياس) في حين يوجد 4 منها في المدن الغربية من الجزيرة الفراتية المحاذية للمدن الشاميّة (في دارى، وماردين، وحرّن، وسروج) كما في الجدولَيْن 5 و6 والشكلَيْن 6 و7.

7. مما سبق نستطيع القول بأنّ المكوّنات العمرانيّة في المدن العربيّة الإسلاميّة تشتهر بنسيج عمراني يميزها عن سائر أنواع الاستيطان البشري الأخرى، لأنّها أنشئت بتخطيط مُسبق للمكان مثل مركز القلعة، ومنطقة قصر الأمير، وجامع الخطبة، والأسواق المحيطة به، علاوة على العديد من أماكن المد الحضري والانتشار العمراني ونعني بها مناطق السّكن والأبنية الخدميّة (كالبيمارستانات) وخاصّة في أطراف المدن التي تتجلى فيها، أكثر من غيرها، مميزات النسيج العمراني للمدينة التّاريخيّة، ويمكن ملاحظة ذلك من خلال في ما تبقّي من هذه المدن، ولذا عبّرت مكوّناتها العمرانيّة أصدق تعبير عن مشاركة الجماعة في تنظيم وإقامة المباني بصفة تجعل تخطيط المكان يتماشى ومصالح الأفراد والجماعات ويتفاعل مع محيط عيشهم.

8. من خلال دراسة العمران في المدن العربية الإسلامية بشكلً عامٍّ، ومن دراسة المكوّنات العمرانيّة لهذه المدن في رحلة ابن جبير، نستطيع أن نقول: إنّ العمران العربي الإسلامي يتفرّد بصفةٍ مُستوحاةٍ من الوظيفة التي يؤدّيها المبنى أو الغرض منه، فالمسجد – على سبيل المثال لا الحصر– أُعدّ بهذا الشّكل من أجل وظائف مُعيّنة يقوم بها كما ذكرنا سابقاً، وما ينطبق على المسجد ينسحب على باقي العناصر العمرانيّة، وبذا يمكننا أن نستنتج بأنّ عناصر الهويّة العمرانيّة للمدينة العربية الإسلاميّة أعطتها شخصيّتها المُميّزة عمرانيّاً ووظيفيّاً.

التوصيات

توصّلت الدراسة إلى التوصيات التالية:

1. الحفاظ على عناصر الهويّة العمرانيّة في المدن العربية الإسلاميّة، من خلال الترميم، وإعادة الإحياء، ووضع القوانين والتشريعات التي تهدف إلى الحفاظ على ما تبقّى من المكوّنات العمرانية للنسيج الحضري في هذه، وبما يتّفق مع المواثيق والاتفاقيات العالمية المتعلقة بحماية المعالم التاريخية (أبو الهيجاء،2002).

2. تمتاز المدن العربية الإسلاميّة التي زارها ابن جبير بوجود نسيج حضري قديم كثيف(نوعاً وتنوّعاً)، وعلى المخططين لهذه المدن ضرورة ربط النسيج الحضري القديم بالنسيج الحديث بشكلٍ يشمل جميع الجوانب الفيزيائية، والاجتماعية، والاقتصادية حتى تكون عملية الإحياء والتطوير متكاملة وليست جزئية، بهدف تطوير بيئة حضرية تُساهم في رفع المستوى الاجتماعي والاقتصادي لسكان هذه المدن، إذ لا يمكن عزل تاريخ المجتمع الحالي عن ماضيه وقيمه الموروثة العظيمة.

3. ضرورة القيام بالعملية الوصفيّة والرقمية لمكوّنات مفاهيم هيكل النسيج الحضري للمدن العربية الإسلاميّة التي زارها ابن جبير(أو لأبرزها)، لاستنباط المفاهيم والمؤشّرات التخطيطيّة، والاستفادة منها في تخطيط مدننا الحاليّة التي نتمنّى أن يعيش سكانها في نسيج حضري يجمع الأصالة والمعاصرة.

4. وهذه توصيات مُوجزة موجّهة إلى الجامعات في الأقطار العربية الإسلاميّة بشكلٍ عامٍّ، والأقطار التي مرّ ابن جبير في بعض أقاليمها نظراً لما لهذه الجامعات من دور قيادي في مجتمعاتها:

– إدخال مساقات دراسية تتعلق بالحفاظ والترميم من ضمن المساقات المطلوبة في كليات الهندسة، بحيث تُعرف الطالب بأهمية التراث والمحافظة عليه، وما هي طرق الحفاظ المستعملة للحفاظ على المباني التراثية.

– العمل على توزيع نشرات توعية توزع على الناس من أجل تعريفهم بتراثهم وأهمية الحفاظ عليه وذلك لجذب الناس والسياح لها.

– تنظيم ورشات تعليمية متعلقة بالحفاظ والترميم، حيث أن هناك خبرات في المؤسسات التعليمية والتعليم العالي(وخاصّة أقسام الآثار) تستطيع القيام بالتدريب بحيث تخرج كوادر عندها القدرة على التعامل مع المباني الأثرية، والحفاظ عليها بالطرق العلمية الصحيحة.

5. إنّ الموضوعات التالية يمكن تُشكّل مجالات خصبة للدراسة عن رحلة ابن جبير، وعن المدن العربية الإسلامية التي زارها في رحلته إلى الحج:

- المنشآت العمرانية الخدميّة في المدينة العربية الإسلاميّة.
- المنشآت العمراني الدفاعيّة في المدينة العربية الإسلاميّة.
- التركيب الداخلي للمدينة العربية الإسلامية.
- المدن العربية الإسلاميّة الكبرى.
- المشاهد والقبور والأضرحة في المدينة العربية الإسلامية.

المصادر والمراجع

ابن جبير، أبو الحسن محمد بن أحمد، 1986، رسالة اعتبار الناسك في ذكر الآثار الكريمة والمناسك المعروف بـ: رحلة ابن جبير، ط2، دار ومكتبة الهلال، بيروت.

أبو الهيجاء، أحمد حسين، 2002، توجيه عمليات الحفاظ والترميم المعماري في فلسطين، القدس.

أماري، مكلة،1994، مقتطف من رحلة محمد ابن جبير إلى المشرق.

بني سلامة، آلاء، 2011، صورة المدينة في الشعر الشامي في القرنين السادس والسابع الهجريين، رسالة ماجستير غير منشورة، قسم اللغة العربية، كلية الآداب،جامعة مؤتة، الكرك.

الخطيب، ماجد، د.ت، النسيج الحضري للنجف– عوامل النشأة والتغيّر، دار الشؤون الثقافيّة، بغداد.

خليفة، عبدالكريم عبدالرحمن،1998، الأردن وفلسطين عند الجغرافيين والرحالة العرب:المقدسي وابن جبير وابن بطوطة، مجلة مجمع اللغة العربية، ج82،عمان.

الرقب، شفيق، 2009، دراسات اجتماعيّة في الأدب الأيوبي والمملوكي، دار صفاء، عمان.

الرقب، شفيق، 1996، صور من الحياة الاجتماعية للفرنجة في النثر الفني زمن الحروب الصليبية، *مجلة دراسات*، الجامعة الأردنية، المجلد23، العدد2، عمان.

الرويضي، محمود،2002، إمارة الرها الصليبية، مطبعة البهجة، عمان.

الصلابي، علي، 2011، قيام الدولة الأيوبيّة، دار الكتاب الحديث، القاهرة.

الشامي، عبدالعال،1981، جهود الجغرافيين في رسم الخرائط، جامعة الكويت، *نشرة الجمعية الجغرافية الكويتية*، الكويت.

طه، عبدالواحد ذنون،2005، الرحلات المتبادلة بين المغرب الإسلامي والمشرق، ط1، دار الكتاب الجديد المتحدة، الرباط.

عزب، محمد زينهم،2000، رحلة ابن جبير– ضبط ووضع فهارس، دار المعارف، القاهرة.

غرايبه، خليف،2009، المُسْتَقَرّات العَربيّة الإسلاميّة في رحلة إبن جُبَيْر (578هـ – 581هـ)، مجلة العلوم الاجتماعية، المجلد37، العدد 4، مجلس النشر العلمي، جامعة الكويت.

لومبارد، موريس،1998م، الجغرافيا التاريخيّة للعالم الإسلامي خلال القرون الأربعة الأولى، ترجمة عبدالرحمن حميدة، دار الفكر، دمشق.

ماريديني، أحمد، 1986، محافظة الحسكة– دراسة طبيعية تاريخية بشريّة اقتصادية، ط1، مطبعة خالد بن الوليد، دمشق.

موسى، عزالدين،1991، الموحدون في الغرب الإسلامي: تنظيماتهم ونظمهم، دار الغرب الإسلامي، بيروت.

نصّار، حسين،1955، رحلة ابن جبير في مصر وبلاد العرب والعراق والشام وصقلية، مكتبة مصر، القاهرة.

نصر، محمد سيد وآخرون، 1999، أطلس العالم، مكتبة لبنان، بيروت.

الهيتي، صبري فارس وآخرون،1985، الفكر الجغرافي وطرق البحث، مديرية مطبعة الجامعة، الموصل.

Earl, John(2001) Building conservation philosophy, Don head, UK. - (http:// wikipedia.org/wiki)

Collins, W.M. (1968) Atlas Advanced, first published, long man Atlases, London, UK.

Urban Fabric of the Arab-Islamic City through the Journey of Ibn Jubeir (578 A.H/1182 -581 A.H/1185)

Khlaif M. Gharaibeh *

ABSTRACT

Ibn Jubeir, the Arab Muslim traveler, set out on his pilgrimage to Mecca from Granada in Andalusia which lasted two years and three months, passing numerous Arab Islamic cities , recorded observations about them in his book:" Resalat E'tibar Alnasek fe thekr alathar alkareemah walmanasek".

The Researcher identified the number of cities as 37, 12 of which were in Egypt, two cities in the Arabian Peninsula, 5cities in Iraq, 8cities in the land of Euphrates Island, and 10 cities in the Levant.

This study aimed to identify urban fabric components of these cities, as described by Ibn Jubeir, which were distributed among the four types:

Residential buildings, religious buildings, defensive buildings, and service buildings(khans, parks, Albemaristans, Hammamat …etc.)

The researcher used the historical analytical approach to trace Ibn Jubeir's Journey between these cities. The study came up with several findings referred to comprehensive Arab-Islamic in urban planning.

Keywords: Urban Fabric, Ibn Jubeir, The Arab-Islamic City, Urban Components.

* Ajloun University College, Al-Balqa Applied University, Jordan. Received on 7/9/2014 and Accepted for Publication on 27/11/2014.